من شعر المدح في المغرب الإسلاميّ – القرن الثّامن الهجري – دراسة وصفيّة تحليليّة.

لطفي بقال بريكسي

طالب دكتوراه– جامعة تلمسان

الملخص:

إنّ شعر المغرب الإسلامي ظهرت فيه أغراض عديدة وبرز المدح في القرن الثامن للهجرة إذ استعمله كثير من الشعراء كالمدح النبوي ، فاستهلّوا قصائدهم بمقدّمة طلليّة متنوعة ، ثمّ موضوع أساسي وثانوي يذكر فيه مدح النبي عليه الصلاة والسلام ومعجزاته، ثمّ خاتمة يمدح فيها السلطان ويدعوا له فيها.

الكلمات المفتاحية : (المدح – الشعر – المغرب – الإسلام – القرن الثامن).

Résumé :

Le poème du Maghreb islamique avait de nombreuses tendances ; ses louanges sont apparus au 8 éme siècles ; il fut utilisé par beaucoup de poètes comme les louanges du prophète. ils commencèrent leurs poèmes avec divers introduction descriptive ; suive du thème principale puis subsidiaires ; ou il es fait les louanges du prophète et ses miracles , enfin il clôture avec l'éloge du sultan et prie pour lui .

لقد ظهر الشّعر العربي في المغرب الإسلامي وبرز بروزا كبيرا في فترات مختلفة، فتعدّدت مضامينه وأغراضه وذلك لتنوّع الظروف التي كان يعيشها المجتمع المغربي في تلك الأزمنة، وأهمّ الأغراض التي قيل فيها الشّعر نجد المدح أو المديح ،الفخر ،الزهد ،الوصف ،الرّثاء ،النسيب أو الغزل، النّصح، الوعظ، الشكوى و الحماسة، وسأتطرّق في هذا البحث إلى المدح أو المديح في القرن الثامن الهجري، وذلك لأنّ الشّعراء استعملوه في مناسبات عديدة منها مناسبة احتفالهم بالمولد النّبوي [1] فكانوا يمدحون فيه المصطفى عليه الصّلاة والسلام،وسأتطرّق إلى هذا الغرض بالوصف والتّحليل والشّرح والتّمثيل ، وممّن نظم في المدح من الشعراء يحي بن خلدون (ت 733هـ) فقد نظم قصيدة حذا فيها حذو لسان الدّين بن الخطيب في مدح المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، ابتدأها بمقدّمة طلليّة يشكو فيها بعده عن البقاع المقدّسة،ثم انتقل منها إلى الموضوع الأساسي وهو مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وذكر مناقبه، تلاها بمدح الخليفة أبي حمّو موسى الثّاني وأبناؤه وهو موضوع ثانوي، وختمها بالدعاء للخليفة وابنه ابا تاشفين، حيث قال[2]:

*مَا عَلَى الصَّبِّ[3] فِي الهَوَى مِنْ جُنَاحِ *** أَنْ يُرى حِلْفَ[4] عَبْرَةٍ وَافْتِضَاحِ

*يَا رَعَى اللهُ بالمُحَصَّبِ [5]رُبْعًا *** آذَنَتْ عِنْدَهُم النَّوَى بانْتِزَاحِ

*نَسْأَلُ الدَّارَ بالخَلِيطِ وَنَسْقِي *** ذَلِكَ الرَّبْعَ[6] بِالدُّمُوعِ السِّفَاحِ

*يَا أُهَيْلَ الحِمَى[7]، نِدَاءَ مَشُوقٍ *** مَالَهُ عَنْ هَوَى الدُّمَى[8] مِنْ بَرَاحِ

*طَالمَا اسْتَعْذَبَ المَدَامِعَ وِرْدًا *** فِي هَوَاكُم عَنْ كُلِّ عَذْبٍ قَرَاحِ

حكى هذه المقدّمة عن أيّام وصوله إلى مكّة وهم يريدون الحجّ، وقلبه مشتاق ومحبّ إليها حتّى فاضت منه عبرات تدلّل على كثرة اشتياقه إليها وشدّة حبّه لها،في البيت الثاني يقول: لما قرب وصولنا إلى مكّة شعرنا بأنّنا أصبحنا قريبين من غايتنا وأنّ هدفنا المرجوّ بدأ يتحقّقن، وفي البيت الثالث رأى أنّ مكّة هي خليط أجناس يأتيها النّاس من كلّ فجّ، فشوقها ورؤيتها تجعل العبد يبكي ويسكب العبرات طمعا في مغفرة الباري ،ثمّ يخاطب أهل مكّة ويقول: إنّ ندائي هذا بكم هو نداء مشتاق لهذا المكان وأهله فلا أستطيع تركه لشدّة شوقه إليه، فهو يحنّ له أكثر من أن يحنّ إلى النساء الجميلات ،ثمّ يلي ذلك البيت الخامس والذي قال فيه: إنّ حبّكم وحبّ هذا المكان يفوق حبّ الماء العذب الصّافي الخالص لما نجد فيه من طمأنينة وراحة بال وأنس وقربة إلى الخالق عزّ وجلّ ، وتبعه بيت آخر فهو يخشى فيه على نفسه ألّا تُغفر ذنوبه يوم القيامة فقد بذل من الجهد والعناء و التعب للوصول إلى هذا المكان الشريف لأجل مغفرة الباري عزّ وجلّ فهو الرّحمن الرحيم، غافر الذنب، قابل التّوب، شديد العقاب، فهو يرجوا رحمته ويخاف عذابه.

و قال في آخر مقدّمته : [9]

*لَمْ أُقَدِّمْ وَسِيلَةً فِيهِ إلاَّ *** حُبَّ خَيْرِ الوَرَى الشَّفِيعِ المَاحِي

وهو بهذا البيت يظهر حبّه الشديد لخير الأنبياء و المرسلين نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم والذي يرجو منه أن يكون شفيعا فيه يوم القيامة فهو خاتم الأنبياء و الرّسل، فقد ادّخر عليه الصلاة والسلام شفاعته لأمّته يوم القيامة.

ثمّ أتمّ قصيدته في مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام فقال[10]:

*سَيِّدِ العَالَمِينَ دُنْيَا وَأُخْرَى *** أَشْرَفِ الخَلْقِ فِي العُلاَ وَالسَّمَاحِ[11]

إلى أن قال[12]:

*مَنْ لِمِيلاَدِهِ بِمَكَّةَ ضَاءَتْ *** مِنْ قُرَى قَيْصَرَ جَمِيعَ الضَّوَاحِي[13]

*وَخَبَتْ[14] نَارُ فَارِسٍ وَتَدَاعَتْ[15] *** مِنْ مَشِيدِ الإِيوَاءَ كُلَّ النَّوَاحِي

*مَنْ رَقَى فِي السَّمَاءِ سَبْعًا [16]طِبَاقًا *** وَرَأَى آيَ رَبِّهِ فِي اتِّضَاحِ

*وَدَنَا مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ[17] قُرْبًا *** ظَافِرًا فِي العُلاَ بِكُلِّ اقْتِرَاحِ

*مِنْ هُدَى الخَلْقِ بَيْنَ حُمْرٍ وَسُودٍ[18] *** وَجَلاَ لَيْلِ غَيِّهِم بِالصَّبَاحِ

إلى أن ختم هذا المدح بقوله:

*إِنَّمَا حَسْبُنَا الصَّلاَةُ عَلَيْهِ *** وَهِيَ لِلْفَوْزِ آيَةُ اسْتِفْتَاحِ

قال رحمه الله في اوّل مدحه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم هو سيّد العالمين في الدّنيا والآخرة عالي المكانة عند الله عزّ وجلّ رفيع الخلق سمح مع النّاس فهو من أولي العزم من الرّسل وأفضلهم ، وهو سيّد ولد آدم عليه الصلاة والسلام ولا فخر كما جاء في الحديث الصحيح، إلى أن قال: " من لميلاده ... " ، أي أنّ يوم ولادته أضاءت الأرض في كلّ الأنحـاء، وخابت نار فارس وخمدت ،فقد جاء الحقّ والتوحيد معه عليه الصلاة والسلام وبطلت عبادتهم للنّار وزهق الباطل ، ثمّ انتقل بعد ذلك إلى حادثة الإسراء والمعراج والتي صعد فيها إلى السماء السابعة بجوار ربّه عزّ وجلّ ورأى ما رأى، ثمّ تلا ذلك بأنّه صلّى الله عليه وسلّم كان هاديا للعالمين وانجلى به الصباح بعد ظلمة الغيّ- أي الباطل- اهتدى النّاس ما بين عربي وعجميّ

ثمّ ختم مدحه بالصّلاة والسّلام على سيّد الخلق وأشرف المرسلين .

أتْبع يحي بن خلدون قصيدته بعد مدح النّبي صلى الله عليه وسلّم بمدح الخليفة الزّياني أبي حمّو موسى الثاني فقـال[19]:

*وَأَدِمْ دَوْلَةَ الخَلِيفَةَ مُوسَى *** ذِي الْمَعَانِي المِينَةِ الأَوْضَاحِ

*نَاصِرَ الحَقِّ خَاذِلَ الظُّلْمِ عَدْلاً *** مَلْجَأُ الخَائِفِينَ بَحْرُ السَّمَاحِ

*يَتَلَقّى النَّدَى بِوجْهٍ حَيِيٍّ *** وَيُلاَقِي العَدَا بِبَأْسٍ صِفَاحِ[20]

*يَا إِمَامًا بَذَّ [21] المُلُوكَ جَلاَلاً *** وَجَمَالاً ، فُدِيتَ بِالأَرْوَاحِ

*أَنْتَ شَمْسُ الكَمَالِ دُمْتَ عَلَيْهَا *** فِي اغْتِبَاقٍ مِنَ المنَى وَاصْطِبَاحِ

ابتدأ الشّاعر مدحه للخليفة بالدّعـاء حتّى يديم الله لهم هذه الدّولـة وهذا الخليفة، فإنّ طريقها بيّنٌ واضح المعالم كثير المكارم، وفي البيت الذي يليه ذكر الشاعر خصال الخليفة وبأنّه ناصر للحقّ خاذل ومبطل للظلّم لا يحكم إلاّ بالحقّ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأنّه سمحٌ يعفو عند المقدرة ، فهو ملجأ الخائفين والضّعفاء والمساكين .. ثمّ أتبع ذلك حتّى قال إنّ الخليفة يتلقّى الخبر ويعطي عطاءً كثيرا ومع ذلك يستحيي من الفقراء فلربّما قصّر معهم وأجحفهم حقّهم، وإذا لقي الأعداء فهو صلب قويٌّ بأسُه كالحجارة العريضة التي لا تنكسر.

هو أتبعه بمدح بالغ فقد فاق الملوك جلالا وجمالا و في كلّ أمر، فتستحقّ التضحية ، فدونك أرواحنا حفاظا على هذه الدّولة ، دولة الحقّ والعدل ، ثمّ تلا ذلك ببيت آخر مفتخرا بأبي موسى حمّو الثاني فقال له: أنت كالشمس تضيء على النّاس بالخير والعدل في كل صباح ومساء .

ثمّ قال يحي بن خلدون في آخر هذه القصيدة [22] :

وَبَنُوكَ الأَعْلَوْنَ أَنْجُمُ سَعْدٍ *** زَاهِرَاتٌ بِنُورِكَ الوَضَّاحِ

وَأَبُو تَاشَفِينَ بَـدْرٌ مُـنِيرٌ*** زَانَهُ اللهُ بِالخِلاَلِ الصِّبَاحِ [23]

أَكْمَلُ العَالَمِينَ خَلْقًا وخُلُقًا *** أَشْرَفُ النَّاسِ فِي النَّدَى وَالكِفَاحِ

وَبِكُم زُيِّنَتْ سَمَاءُ المعَـالِي *** وَاهْتَدَى النَّاسُ فِي الدُّجَى وَالصَّبَاحِ[24].

أنهى الشّاعر قصيدته بمدح أبناء الخليفة فقال: أبناؤك أنجم زاهرات بنورك ، فجعل الخليفة شمس وأبناؤه نجوم وكواكب يسطع فيهم نور الشّمس، ثمّ ذكر في البيت الذي بعده ابن حمّو أبو تاشفين وقال عنه أنّه بدر منير زانه الله بصفات جميلة لا يتخلّق بها إلاّ الأصفياء ثمّ مدحه بأنّه أكمل العالمين خَلْقًا وخُلُقًا وهذا فيه مبالغة في المدح فأكمل النّاس خَلْقا وخُلُقا هو المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ثمّ الأنبياء ثمّ الصّحابة رضي الله عنهم..، عدّد محامد ابا تاشفين بأنّه كريم لا يبخل و شجاع في الحرب لا يجبن، وأنهم زينة في هذه الدّنيا بمحامدهم وصفاتهم الكريمة، فقد كانوا قدوة حسنة في الدّنيا يقتدى بصفاتهم ويهتدى بأخلاقهم.

وبعد : فمن خلال ما سبق يتّضح أنّ القصيدة المولديّة هي عمل فنيّ متقن يستمدّ فنيّته من جهد الشّاعر الإبداعي، فقد أعطاها الشّعراء رعاية كبيرة لما لها من موقع في النّفوس و الأذهان فهي قصيدة مؤثّرة تسترعي عناية المتلقي وتشدّ ذهنه وانتباهه، فقد ابتدأها الشّاعر بمقدمة طلليّة متعدّدة الأوصاف فكانت أحيانا بالنّسيب والتغزّل العفيف، وذكر الشّيب والشّباب ووصف الطّبيعة، إذ أنهم لم يكثروا من عناصر المقدّمة الطلليّة، كما أنهم لم يقصّروا في ذكرها، بل اختصروها حفاظا على طريقة العربية القديمة التي ابتدأت هي كذلك بالطّلل، فقد كانت لوحات فنيّة تصوّر للسامع والقارئ مظاهر الحياة التي كان يعيشها العربي في البيئة القديمة، إذ نحا نحوها شعراء المغرب الإسلامي على اختصار في مادّتها ، ثمّ أضافوا إليها ما يعرف بالتّخليص لينتقلوا من خلاله إلى الموضوع الأساسيّ وهو مدح النبيّ عليه الصلاة و السّلام وذكر مناقبه وصفاته وبعض معجزاته، ومدحه بصفات تليق بمقامه .

وممّن قالوا أيضا في هذه اللّيلة شعرا أبو البركات ابن الحاج [25] : فقد باشر موضوع قصيدته بالتّغنّي بتلك اللّيلة للاحتفال بالمولد النّبوي والانبهار بمظاهرها حيث قال :

الله أكبر لاحت الأنوار *** وصفت نفوس وانجلت أفكار

وترنّحت بها القلوب بليلة *** فيها كؤوس بالسرور تدار

لم لا؟ وهاذي ليلة اليوم الذي *** ظهرت به في العالم الأسرار[26]

باشر الشّاعر في قصيدته الحديث عن مظاهر الاحتفال، وأثر المناسبة على الحضور إذ اتضح من خلال الأبيات أنّ إنارات المكان كانت تزيّن الاحتفال وفرحة النّاس بادية في كلّ مكان بهذه المناسبة .

وعليه فقد اغتزل بعض الشعراء هذه المقدّمة الطلليّة ودخلوا في الموضوع مباشرة دون تقديم يذكر وجعلوا من الباعث الرئيس للقصيدة تقديما لها، حتى بدت المقدّمة تشكّل جزءا من موضوع القصيدة .

1 -**المقدمةالطلليّة**: إن تعدّدت

المقدمة الطللية كما أسلفنا الذكر إلاّ أنّ بعضهم مزج بين الطبيعة والغزل، ولم يكتف بغرض واحد كما قال أبو حمّو موسى الزياني في قصيدة مطلعها :

قفا بين أرجاء القباب و بالحيّ *** وحيّ ديارا للحبيب بها حيّ

..... *** .....

وأصبوا إلى أرض الحبيب و من بها *** متى ما سرى عرف النسيم الحجاز

وكم نفحة تحيي الفؤاد بنشرها *** أتت بنسيم عاطر النّشر مسكي

أعلل نفسي بالنسيم إذا سرى **** وبالبرق إذ يسري و سجع القماري

أحبّة قلبي ما أمرّ فراقكم على *** قلب صبّ لا يضيق على شيء.

حياتي وموتي في هواكم وأنسي *** أعلّل نفسي فيكم بالأماني. [27]

يذكر الشّاعر في هذه الأبيات أنه كلما هبّ النّسيم حرّكوا من النّفس وزاد شوقه وحنينه، ثمّ يبدأ بوصف هذا النسيم العاطر إذ يزيد شوقه البرق الذي كلّما لاح من بعيد ذكّره بالحبيب، فزاده من شوقه وولعه ازدوج الغرضان في هذه المقدّمة بين الغزل والطّبيعة.

كما أنّ الشعراء استعملوا مقدّمات طلليّة تدعوا إلى الرّحلة إلى البقاع المقدّسة وإظهار الشّوق لها وهذا النّوع شكل تقليدا تأسّس منذ القرن السّادس الهجريّ، فحققت نضجا وانتشارا واسعا مع شعراء القرن السابع والثّامن الهجري، إذ يظهر ذلك فيما تحمله من رسالة إلى تلك الأماكن المقدّسة وإظهار النّدم والحسرة نتيجة التّخلف عن الرّحلة والقعود عن الحجّ، وفي هذا يقول أبو حمّو موسى[28] :

قلبي انفطر والدّمع جرى *** والرّكب سرى نحو العلم

قلبي بنواه أسير هواه *** فـيا شوقـاه إلى الخيـم

سُرَّت الإبل لمآ ارتحلوا *** قلبي حمّلوا في ركبهم

حملوا خلدي أثنوا جلدي *** تركوا جسدي رهن السقم

حطّ العشاق ركائبهم *** بين العَلمين و بالحـرم

و غدا المشتاق بزفرته *** في مغربه يبكي بدم

شدّوا عزموا فازوا غنموا *** لما قدموا لحمى الحرم [29]

في هذه المقدمة يصف الشاعر انطلاق الركب إلى البقاع المقدسة ويصف حاله بعد تخلفه عن الرّكب، فقد اشتاق من زيارة الحبيب المصطفى عليه الصلاة و السلام إذ بقي لوحده يبكي و يتألّم، واعتبر أنّ كل من في الركب قد فاز وغنم إذ هي رحلة مباركة إلى البقاع المقدسة .

2- موضوعات قصيدة المديح النّبويّ :

قصيدة المديح في المغرب خلال القرن الثامن كانت مركبة لا يخرج الشّعراء في بنائها عن القصيدة العربية المعروفة، فيمرّ الشّاعر بمحطّات رئيسية ثلاث هي : المقدّمة الموضوع أو الغرض والخاتمة ، تقدم الحديث عن المقدمة و عن أهمّ انواعها .[30]

أمّـا فيما يتعلق بموضوع قصيدة المديح فإنّها أنشئت أساسا لامتداح النّبي عليه الصّلاة و السّلام و تعظيم ذكراه فهذا هو الموضوع الأسـاسي، ثمّ يليه موضوع ثانوي ينظم فيه الشّاعر مدحا لملك أو دعاء لنفسه فهي تنشد بين يدي السّلطان ليلة الاحتفال بهذا المولد وعليه فإنّهـا تقسّم إلى موضوعين : أسـاسيّ وثـانويّ.[31]

أ -موضوع الغرض الأسـاسيّ :

إن الموضوع الأساسي الذي من أجله أنشأت قصيدة المديح النبوي هو مدح النبي المختار، فشعراء هذا القرن ركّزوا في بناء قصائدهم على نقاط أساسيّة وهامّة : مدح النّبي عليه الصّلاة والسّلام والإشادة بليلة الميلاد، تعداد المعجزات، الاعتراف بالعجز عن مدح النّبي عليه الصلاة والسلام، و من النّماذج الشّعرية عن ذلك مايلي :

1 -مدح الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وتعداد مناقبه:

يقوم الشّاعر بتعداد صفات النّبي عليه الصلاة و السلام ومآثره، ويسعى إلى تتبع تلك الصفات التي تدخل في تشكيل شخصيّة النّبي عليه الصّلاة و السّلام أقوالا وأفعالا، ومن الأمثلة على ذلك قول الثّغري التلمسانيّ[32] :

رسول كريم خاتم الرّسل كلهم *** وأعظم من تلقى إليه الرّسائل

وأفضل مبعوث وأكرم شافع *** تنال به يوم الحساب الوسائل

بدا فانجلى ليل الضلالة بالهدى *** وزاح به ما زخرفته الأباطل

وعمّ جميع الخلق علما وحكمة *** فلم يبق في عصر الجهالة جاهل[33]

فالشاعر في هذه الأبيات يمتدح النبي عليه الصلاة و السّلام ويذكر أنّه أعظم من تلقّى الرسائل وأنّ بمجيئه انجلى ليل الضلالة وعمّ الكون العلم والأخلاق .

و ذكر أبو حمّو موسى الزّياني قصيدة يمدح النّبي عليه الصّلاة والسّلام ويعدّد صفاته وأنّه بعث للنّاس أجمعين هدى ونورا ورحمة للعالمين، يقول فيها :

نبيّ كريم جاء بالرشد والهدى *** إلى كلّ قلب في الضّلالة مارج

جلى بالهدى والرشد كلّ ضلالة *** ومحلى بدين الله دين الخواج

به انهدّ إيوان لكسرى وأخمدت *** لفارس تلك النار ذات الوهائج

وأشرقت الأنوار من نور أحمد *** فمنه استفاد الكون كلّ المباهج[34]

2 -تعداد معجزاته عليه الصّلاة والسّلام:

بعدما انتهى الشّاعر من مدح النّبي عليه الصّلاة و السّلام وتعداد مناقبه وصفاته ذكر معجزاته عليه الصّلاة والسّلام فهي عنصر أساسي في بناء القصيدة المولديّة، إذ أنّها أحد مظاهر النّبوة، فما من نبيّ إلاّ و أيده الله بمعجزات تؤيّد الحقّ الذي جاء به وتثبّت نبوّته، وأهمّ معجزات نبيّنا القرءان الكريم، فما من شاعر ينظم مولديّة إلا ويذكر فيها هذه المعجزة ، ومن الشعراء الذين نظموا في هذه المعجزة الثغري التلمساني حيث قال :

نبـيّ جمـيـع تحت لوائــه *** وقد خصّ فضلا دونهم بلواء الحمد

كما خصّ بالسّبع المثاني كرامة *** من الله وهي السّبع من سورة الحمد

له معجزات ما ثلث كلّ ما أتى *** به الرّسل من آي وأربت على العدّ

وأعظمها القرآن يهدي لنا الهدى *** فيا حسن ما يهدي ويفوز من يهدى

هو الوحي أجلى من سنا الشّمس *** في الضّحى سناه أحلى حين يتلى من الشّهد[35]

فالشّاعر في هذه الأبيات يبين معجزة النّبي المصطفى التي خصّه بها و هي القرءان العظيم إذ جعله الله هدى ونورا وبينات من الهدى والفرقــان، فهو النّور لمن أراد أن يستضيء به، ثمّ أتمّ ذكر معجزات أخرى حيث قال:

له انشق بدر التمّ عند كماله *** فشاهده من كان بالقرب والبعد[36]

له حنّ جذع النخل عند فراقه *** حنينا شكى من شوقه ألم الفقد

وفاض نمير الماء بين بنـانه إلى*** أن تروى الجيش من ذلك الورد

وآياته قبل الولاد وبعده *** لكثرتها لم تحص في القبل والبعد [37]

ابتدأ الشاعر في ذكر المعجزة التي تلي معجزة القرءان وهي حادثة انشقاق القمر فقد قال الله عز وجلّ فيها: " إقتربت الساعة وانشقّ القمر" ، ثمّ تلاها بمعجزة جذع النخل الذي اشتكى ألم فراقه عليه الصلاة والسلام ،وذكرت فيها أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما، ثمّ تلا ذلك بمعجزة تكثير الماء الذي ينبع من بين أصابعه عليه الصلاة والسّلام، امّا عن آياته قبل الولادة فحدّث ولا حرج فهي كثيرة لم تعدّ ولم تحص كما قال الشاعر، منها : تكسّر إيوان كسرى وظهور ضياء في السماء .. وغيرهما .

3 -**الإشادة بليلة مولده** :

فتعظيم ليلة المولد تعدّ من أهمّ العناصر التي تدخل في بناء القصيدة المولديّة ، فلأجلها أنشئت ، ومن ذلك ما قاله يحي بن خلدون:

من لميلاده بمكّة ضاءت *** من قرى قيصر جميع النواحي

وخبت نار فارس وتداعت *** من مشيد الإيوان كلّ النواحي[38]

هذه المعجزات ظهرت قبل مولده عليه الصّلاة والسّلام إنباء بميلاده وإخبارا بقرب مجيئه ، فقد تنبّأت اليهود ببعثته لما رأت هذه العلامات، إذ طافوا مكّة في تلك اللّيلة يرون من ولد فيها، فلمّا أخرجوه لهم ورآه يهوديّ وكشف عن خاتم النبوة الذي بين كتفيه أغشي عليه فعلم أنّ الرّسالة انتقلت منهم إلى العرب، هنا ينتهي الغرض الرئيسي في هذه المولديات غالبا، ثمّ ينتقل الشّاعر بعدها إلى الموضوع الثّانويّ .

ب - **الموضوع الثانويّ** :

ينتقل الشّعراء من الموضوع الأساسي من القصيدة المولدية إلى الموضوع الثّانوي، فمنهم من يمدح وليّ أمره ونعمته و يكون ذلك بذكر نبله وكرمه وعدله، لأنّه هو صاحب الاحتفاء بهذه المناسبة ،ترفع إليه القصائد التي نظمت في هذه المناسبة، لهذا كان لزاما أن يكون له نصيب من المدح في هذه القصيدة . [39]

1 ـ **مدح السلطان:**

في هذا العنصر يتمّ الحديث عن مكانة السّلطان و الصّفات الخلقيّة التي يتّصف بها، يقول الثّغري مادحا أبو حمو موسى الثاني مبرزا مكانته العالية قائلا:

أمولاي إنّ الله أعطاك ملكه *** فشيدت من مبناه ما كان واهيا

..... *** .....

وحضرة زانها الخليفة موسى *** زينة الحليّ عاطل الأجياد

وحباها بكلّ بذل وعدل *** حماها من كلّ باغ وعاد

ملك جاوز المدى في المعالي *** فالنا هيان عنده كالمبادي[40]

وبهذا نقول بأنّ مدح الخليفة كان له مكانا في القصيدة المولدية فهو إعلان من شأنهم ورفع لمكانتهم و أحيانا تكون نصيحة يمررها الشّعراء من خلال هذا المدح .

2 ـ **وصف الجيش والعتاد** :

وبهذا ينتقل الشّاعر من المدح إلى الوصف، فيصف عتاد الحرب وقوة الجيش إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وكان هذا الأمر في فترة من الفترات، خاصة إذا دعى الأمر إلى ذلك، مثل ما كان الصّراع يدور بين الدّول الثّلاث: الدولة الحفصية والزيانية والمرينية فقد كانت تتصارع حول التّوسّع،كل واحدة على حساب الأخرى، إضافة إلى تدهور أوضاع الأندلس وسقوط مدنها ممّا استدعى الأمر إلى ذكر القوة والعتاد تشجيعا للخلفاء على دفع صولة الجائر، ومن أمثلة ذلك قول الثّغري التّلمساني :

أيا ملكا دانت بطاعة أمره *** جميع الورى حتّى الملوك القبائل

بعثت بجيش النّصر كالبحر للعدى ** تدافع كالأمواج فيها الجحافل

وكالسّحب لكن البروق صوارم *** به منفضات والرعود صواهل

وكالروض إلا أنّ مشتجر القنا *** له شجر والمرهفات جداول[41]

فالشّاعر يبدأ بمدح وليّ أمره ثمّ يثنّي بوصف الجيش وأنّه كالبحر يدفع العدوّ من كلّ جانب ، فهو يتحدى أقوى الجيوش التي تتظاهر كقوّة الرعد والبرق، فهذا الجيش يصطفّ كأنّه روضة له قنوات تحيط به في كلّ جانب، و به شجر كناية عن الصلابة ليدفع بها قوّة العدوّ.

ج- خاتمة قصيدة المديح:

الخاتمة تعدّ آخر مقطع في القصيدة وهي آخر ما يطرق السمع لذلك اهتمّ الشعراء وحرصوا على تحسينها وبيانها، فكانوا يدعون فيها للسلطان أو لأنفسهم مثل ما حصل في قصيدة الثغري الذي اختار أن يختمها بالدعاء للسلطان أبي حمّو، فيقول:

إليك يا خير الملوك قصيدة *** كالسّلك فصل درّه مرجانه[42]

من ناظم سحر البيان بدائعا *** لكن يقصر عن حلاك بيانه

والعبد من مولاه يلتمس الرضا *** إنّ الخليفة شامل إحسانه

لازال مولانا أبو حمو حمى *** للملك دام مؤيّدا سلطانه[43]

فالشاعر يدعوا للملك بدوام السّلطان والملك والعزّ والسعادة في الدنيا والآخرة فقال:

فاهنأ بليلة المولد الهادي الذي *** عظمت لأمته بها بشراها

وتعاضد النّوران من شمع و من *** شهب فطار بها غراب دجاها[44]

وبهذا نقول أنّ المدح النّبوي في المغرب الإسلاميّ في هذا القرن كان أكثر ما يقال في الموالد ، فكانو يخصّون هذه المناسبة بمدح النّبي صلّى الله عليه وسلّم، فيبدؤون بمقدّمة طلليّة حيث أنّها تنوّعت من قول النّسيب فيها والغزل العفيف أحيانا، وأحيانا أخرى قيل فيها غير ذلك،ثمّ يباشرون بعدها الموضوع الأساسي ويكون فيه ذكر صفات ومناقب المصطفى صلى الله عليه وسلّم ومعجزاته، وفي الخاتمة والتي هي الموضوع الثّانوي يمدحون فيها الخليفة وأهله أحيانا ويدعون له فيها أحيانا أخرى،كما يخصّونه أيضا بالمدح أيّام الانتصارات ، فإذا انتصر جيش الخليفة في معركة ما أتاه الشعراء بقصائد يمدحونه فيها ويثنون بها عليه .

الهوامش:

[1] - ظاهرة الاحتفال بالمولد النّبوي الشّريف بدأت في عهد الفاطميّين (341-365هـ) فسُنّت للمجتمع المصري وأوّل من دعا لها بالمغرب هو بنو العزفي بسبته في أواخر القرن السّادس الهجري، وأوّل من احتفل به من الحكّام في المغرب هم بنو مرين وعلى رأسهم يعقوب ابن عبد الحقّ (656-685هـ) وظلّت هذه الظاهرة حتى شملت جميع أقاليم المغرب الأقصى في عهد السلطان يوسف بن يعقوب (605-706هـ) وجعله من الأعياد الرّسمية، أمّا في تونس لم يكن منتظما إلاّ في عهد أبي فارس عبد العزيز (796-837هـ) وظهر أيضا في الأندلس أيّام السلطان أبي الحجّاج يوسف الأوّل (733-755هـ).

أمّا في عهد الدّولة الزيانية بالمغرب الأوسط لم تعرف الاحتفال بالمولد إلاّ في وقت متأخّر عن جيرانها، وذلك وفق ما تشير إليه معظم المصادر التي تجمع على أنّ تاريخ شيوع الاحتفال بذكرى المولد النبوي في تلمسان بدأ مع تولّي أبي حمّو موسى الثاني تقاليد الحكم (760هـ- 1359م) وكان سبب هذا التأخّر هو أنّ المذهب الدّيني السّائد والذي كان يتّبعه فقهاء تلمسان وغيرهم من العوام هو المذهب المالكي، فالذين يعملون برأي الإمام مالك – قدّس الله روحه – يعدّون هذا الاحتفال بدعة مردودة ، فهم يرون أنّ كل م ا استحدث بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعدّ ضلالة ، وفي هذا الشّأن يقول الإمام مالك رحمه الله : " من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم قد خان الرّسالة ،لأنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾، فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا، وكذلك استند هؤلاء إلى أنّ السلف الصالح من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتابعيهم لم يقوموا به ا على امتداد القرون الثلاثة المفضّلة التي يُشهَد لها بالإجتهاد والخير.." – تلمسان في العهد الزّياني–عبد العزيز فيلالي – ج1 – ص 274 إلى 282 ، بتصرّف.

[2]- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – أحمد بن محمّد المقري التلمساني – تحقيق: إحسان عبّاس – دار صادرة - بيروت – دط- 1388ه/1968م- ج6 – ص 510.

[3]- الصَّبُّ: رجلُ صبّ : إذا غلبه الهوى وهو من انصاب القلب ، مادّة (صَبَ) ، معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس ابن زكريّـاء ، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر و التّـوزيع ، دط ، دت ، ج 3، ص 281 _ حِلْفٌ: العهد بين القوم والصّداقة ،القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي – راجعه واعتنى به : أنس محمد الشّامي، زكرياء جابر أحمد ، دار الحديث القاهرة ، دط ، 1429ه/2008م ، ص 393 ، مادة (ح ل ف) حرف الحاء _ عَبْرَةٌ (بفتح العين) الدمعة قبل أن تفيض، أو تردّد البكاء في الصدر، أو الحزن بلا بكاء . المصدر نفسه : (حرف العين) ص 1042، مادّة (ع ب ر) .

4 – المُحَصَّبُ: موضع رمي الجمار بمنى ، المصدر نفسه : ص 368، حرف الحاء، مادّة (ح ص ا) _ الرَّبْعُ: الدّار بعينها حيث كانت المصدر نفسه : ص611 ، حرف الراء ، مادّة (رب ع)_ النّوى : الدّار و التّحوّل من مكان إلى آخر . المصدر نفسه ،ص 1666 حرف النّون، مادّة (ن و ى) .

5- الخليط : المجاور. معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فارس، ج 2- ص209 ، حرف الخاء ، مادّة (خ ل ط) _ السِّفَاح : " ليست موجودة في المعجم بالمعنى الذي قصده الشّاعر،وهي بمعنى المسفوحة : أي الهاطلة بكثرة، وبينهم سِفَاح (بكسر السّين) سفك الدّماء . تاريخ الأدب المغربي : عمر فروخ – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – ط4 – 1981- ج6 – ص541 – 542 .

[6]- أُهَيْلُ الحِمَى: كناية عن أهل مكّة _ الدُّمَى : النّساء الجميلة - المصدر نفسه : ج 6 ، ص 541 _ البَرَاحُ : زال عنه، القاموس المحيط- ص111 ،حرف الباء ، مادّة (ب ر ح) .

7- وِرْدٌ: الماء الذي يورد ، التصيب من القرآن .. لسا ن العرب: ابن منظور – دار صادرة – دط – دت – ج3- ص455 – 456 حرف الدال – مادّة (ورد) _ القَرَاحُ : كسحاب الماء لا يخالطه ثُفْلٌ من سويق وغيره ، والخالص . المصدر نفسه : ص 1301 – حرف الحاء ،مادّة (ق ر ح) .

8 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقري ، تحقيق: إحسان عبّاس ، ج 6 ، ص511.

9 - المصدر نفسه : ج6 – ص511 .

10- العُلا : من العلق ، السّماح : سمح في أخلاقه .

11- المصدر السابق: ج6 – ص511 .

12 - الضّواحي: جمع ضاحية، كل شيء ناحيته بارزة ، يقال هم نازلون الضّواحي ، ومكان ضاحٍ: أي بارز ، مختار الصّحاح ، محمّد ابن أبي بكر عبد القادر الرازي ، مكتبة لبنان - بيروت - دط ، 1986 ، ص158 ، حرف الضّاد ، مادة (ض ح ا) _ قَيْصَر: ملك الروم.

13- خَبَا : أصلها الهمز لأنها من خبأْت إلا أنهم تركوا همزها فنقول : خَبَتِ النّار من باب سما أي انطفأت ـ المصدر نفسه : ص 71 - حرف الخاء - مادة (خ ب ا) _ تداعى: تداعت الحيطان للخراب أي تهادمت، ادَّعى عليه و الاسم الدَّعوى، المصدر نفسه ص 86 - حرف الدّال- مادّة (دع ا) _ الإيوان : قَصْرُ كِسْرَى .

14- سبْعًا: السماوات السبع يقصد _ طِباقاً: قال الزَّجّاج : " معنى طباقا أي مطبق بعضها على بعض ، لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفـريقي المصري - ج10 - ص 210 ، حرف القاف ، مادّة (ط ب ق) .

15- قَابَ قوْسَين : مسافة ما بين قوسين - تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ ، ج6 ، ص 542.

16- - الحُمُر وَ السُّود : قال شمر : "..يقال أتاني كلّ أَسْوَدٍ منهم و أَحْمَر ولا يقال أبْيض معناه جميع النّاس عربهم و عجمهم يحكيها عن أبي عمرو بن العلاء. المصدر السابق : ج6 – ص209 ، حرف الراء، مادّة (ح م ر) .

17- نفح الطيب ، المقري التلمساني ، ج6 ، ص 512.

18- المصدر نفسه : ج6- ص512.

19- البأس: الخوف والشّدة .._ النّهاية في غريب الحديث والأثر ، مجد الدين بن محمد الجزري بن الأثير، تحقيق : طاهر أحمد الزّاوي ومحمود محمّد الطّناحي ، المكتبة الإسلاميّة ج1 ، ص 89 ، حرف الباء ، باب الباء مع الهمزة ، مادة (ب أ س) _ الصِّفَاح : جمع صفح ؛ صفح الجبل ، مضطجعه .، وصفحة الرجل : عرض وجهه وصفح السّيف: عرضه ، لسان العرب ، ابن منظور، ج 02 ص 512، حرف الحاء ، مادّة (ص ف ح).

20- بُدٌّ: فَرَقَ، و بدّ رجليه في المقطرة، فرّقهُمَا، المصدر نفسه : ج3 ، ص89، حرف الدّال مادّة (ب د د) .

21- الاغْتِبَاق: الشُّرْبُ بالعَشِيّ، لسان العرب : ابن منظور،ج10 – ص281 – حرف القاف ، مادّة (غ ب ق) _ الاصْطِبَاح : فعل الشرب بالغداة – المصدر نفسه : ج2 – ص503 – حرف الحاء – مادّة (ص ب ح) .

22- نفح الطيب ، المقري التلمساني ، ج6 ، ص 512- 513.

23- أبو تاشفين : ابن حمو الثاني ، و الخِلال : جمع خُلَّةٍ : الودُّ و الصَّديق ، مختار الصّحاح ، محمد بن أبي بكر الرّازي ، ص 79 حرف الخاء مادّة (خ ل ل) .

24 - الدُّجَى : الظُّلْمَة، المصدر نفسه : ص 84 ، حرف الدّال مادّة (د ج ى).

25- هو أبو البركات محمّد بن محمّد بن ابراهيم بن الشّيخ الولي أبي اسحاق بن الحاج السّلمي البلفيقي ولد في إلمريّة سنة (680 ه) وبدأ تعلمه فيها وفي إشبيلية، ثمّ انتقل إلى المغرب وقرأ في بجاية على قاضي الجماعة أبي منصور أحمد بن عبد الحق المشذالي (ت 731ه) تولى القضاء في مالقة سنة (735ه) وبعدها الخطبة حتى صار قاضي الجماعة في إلمرية ، توفي فيها سنة (773ه) . تاريخ الأدب العربي عمر فروخ – ج6 ص498- 499.

26- نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب : لسان الدين بن الخطيب – ج3 – تحقيق : السعدية فاغية – الدار البيضاء - المغرب – ج3 ص294 .

27- أبو حمو الزياني – حياته وآثاره - : عبد الحميد حاجيات – الشركة الوطنية للتوزيع والنّشر – الجزائر- ط 2 – 1982م – ص346 .

28- ينظر : قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثّامن والتّاسع : صونيا بوعبد الله - إشراف : علي عالية – ص 80-81 .

29- المصدر السابق : ص342 - 343 .

30- المصدر السابق : ص 86.

31- المصدر نفسه : ص 86 .

32- هو محمّد بن يوسف القيسي الثغري، ولد بتلمسان ونشأ فيها ، وقد أدرك دولة بني زيان في دورها الأوّل، كان وثيق الصّلة ببلاطها كان يوسف الثغري أديبا عارفا بفنون الأدب ناثرا شاعرا، وفنونه : المدح والرثاء والوصف والشّعر الديني ، وكانت بينه وبين لسان الدين ابن الخطيب مراسلات، توفي سنة (780ه) في الأغلب . تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ – ج6 ص537.

33- الديوان : يوسف القيسي التلمساني – تحقيق: نوار بوحلاسة – منشورات مخبر الدراسات التراثية – جامعة منتوري قسنطينة – الجزائر – دط- 2004 - ص103 .

34- أبو حمّو الزّياني – حياته وآثاره - : عبد الحميد حاجيّات – ص 376 .

35- المصدر السّابق : ص55 .

36- الديوان : يوسف القيسي التّلمساني – ص 56.

37- المصدر نفسه : ص56 .

38- - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – أحمد بن محمّد المقري التلمساني – تحقيق: إحسان عبّاس – ج6- ص510 .
39- ينظر : قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثّامن والتّاسع : صونيا بوعبد الله - إشراف : علي عالية – ص99 -100
40- الديوان : يوسف القيسي التّلمساني – ص 172 .
41- المصدر نفسه : ص 109.
42- المصدر نفسه : ص 125.
43- المصدر نفسه : ص 125.
44- - المصدر نفسه : ص 167.